البلاغة والأسلوبية

انتهت البلاغة العربية إلى أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته فهي صفه راجعة إلى اللفظ لأنها إفادة المعنى عند التركيب ، فالبلاغة بوصفها فنًا كانت اسبق تاريخًا من وجود قواعدها وأحكامها ، فهي فن الكلام شعرًا ونثرًا ، وكانت فنونها شائعة في الشعر الجاهلي ونثره ، وحين نشأت أول مرة أمرها لم تنشأ مستقلة عن غيرها من العلوم كعلم اللغة والقران ، كما كانت علومها الثلاثة مختلطة ببعضها أول الأمر تشكل بمجموعها أصول البلاغة العربية ، ولم تعرف الاستقلال إلا في المراحل المتأخرة .

من يدقق النظر في بناء البلاغة المنهجي وترابط علومها يفضي إلى أنها قامت على أساس العلاقة بين الأسلوب والمعنى . فهناك معنى يريد المتكلم ان يعبر عنه ويوصله إلى السامعين ، فتاتي البلاغة لتعلمه كيفية التعبير عن المعنى بكلام فصيح يلائم أحوال السامعين ... فكانت علومها الثلاثة تأكيدا لهذه الحقيقة ، فعلم المعاني يتجه نحو دراسة الخصائص الأسلوبية المطابقة لحال السامع كالتقديم والتأخير والذكر والحذف والتنكير والتعريف والإيجاز والإطناب ...الخ . أما علم البيان فقد قيل في تعريفه هو العلم الذي يعرف بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة سواء بالتشبيه أو المجاز أو الاستعارة أو الكناية ..أي المعنى واحد ولكن أساليب التعبير عنه مختلفة

أما علم البديع ففيه العلاقة بين الأسلوب والمعنى من جهة التحسين أي تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ، وللتحسين وجوه منها ما يرجع إلى المعنى ، ومنها ما يرجع إلى اللفظ إلا اننا يجب أن نفرق بأن البلاغة العربية وقفت عند الجملة وأجزائها ولم تتخط ذلك إلى العمل الأدبي برمته شأنها في ذلك شأن النقد القديم ، ولم يجر دراسة النصوص كأعمال أدبية متكاملة وبوصفها أنواعًا أدبية ذات خصائص مميزة الا في الدراسات الحديثة ... فضلا عما لحق بالبلاغة العربية على يد المتأخرين من تقصير وتعقيد صرفتها عن عالم الإبداع الفسيح إلى ميدان الفلسفة والمنطق ..كل ذلك دفع إلى محاولات تجديد البلاغة العربية أو محاولة إيجاد البدائل لها ، فكانت الدراسات الأسلوبية الحديثة محاولة تصب في هذا الاتجاه على الرغم مما عكسته من الاختلاف في النظر إلى العمل الأدبي عن البلاغة الا انها أقرت صراحة او ضمنًا بما للبلاغة من ضرورة وأهمية .

أما الأسلوبية أو علم الأسلوب فكما رأينا علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والجمالية فتميزه من غيره ، انها تعنى بدراسة الأسلوب الذي هو

استعمال خاص للغة يقوم على الاختيار الأساليب التي تتميز عن غيرها في عرض الفكرة ، ووسيلة تمييز هذه الأساليب هي الموازنة انطلاقًا من مبدأ عام يقضي بأن المعنى الواحد يمكن التعبير عنه بأشكال مختلفة .

لذا نجد نقاط التقاء واختلاف بين البلاغة والأسلوبية ، وكانت نقاط الالتقاء بينهما سببًا دفع بعض الباحثين إلى القول : ((علم الأسلوب ذو نسب عريق عندنا، لأن أصوله ترجع إلى علوم البلاغة، وثقافتنا العربية تزدهي بتراث غني في علوم البلاغة)) وممن ذهب هذا المذهب د. تمام حسان في كتابه (الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب) ود. احمد مطلوب في بحثه النقد البلاغي المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي . كما قامت دراسات حاولت التقريب بين البلاغة العربية والأسلوبية كدراسة الأستاذ احمد الشايب (الأسلوب) و(نظرية اللغة في النقد العربي) للدكتور عبد الحكيم راضي و(التركيب اللغوي للأدب) للدكتور لطفي عبد البديع وكان هدفها جميعا ربط البلاغة القديمة بعلوم العصر الحديث .

لعل أولى نقاط الالتقاء بين البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة وقوفهما عند ثنائية اللغة والكلام واعتماد المقارنة منهجًا في دراسة عدول الكلام من الاستعمال العادي للغة إلى الاستعمال الفني فقد اهتم علماء العربية منذ وقت مبكر بنوعين من الدراسات اللغوية الأولى: تعنى ببيان الخطأ في العبارة وترشد الى الصواب ، والثانية : تتجاوز هذا المستوى إلى ناحية الجمال والإبداع فيها ، فكان طبيعيًا ان ينصرف من اهتم بالمستوى الثاني من الدراسات إلى التراكيب وتأليفها ذلك لان المستوى الأول عام يشترك فيه الناس جميعا كما انه محدود بقواعد اللغة ، إما التراكيب فانها تتفاوت من إنسان إلى آخر وذلك لارتباطها بالأفكار أو المعاني ، فكل تغيير في المعنى يتبعه تغيير في المبنى ، إي إن عملية التركيب اللغوي تتشكل بحسب مقتضيات المعنى .

وقد تجلى هذا الفهم للفرق بين اللغة والكلام عند عبد القاهر الجرجاني حين ميز بين الألفاظ المفردة التي تكون معانيها ثابتة مستقرة لا مجال للابتكار فيها ولا تعرف بأعمال الفكر وإنما بالتوقيف والتقدم بالتعريف وعلى المتكلم ان يراعي ما وضعت اللغة عليه .(دلائل الاعجاز: 267،268) وبين الألفاظ في النظم الذي صار موضوع بحثهِ ومحور كل آرائهِ. فالبلاغة ميدانها الكلام واللغة ولا تغيب عن أذهاننا تلك التفرقة التي أكدها ابن الأثير بين وظيفة النحوي ووظيفة عالم البيان فإن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة

خاصة ، والمراد أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والإعراب (المثل السائر: 1/ 39 ، 40)

كما يظهر الاشتراك بين البلاغة والأسلوبية في قضية العدول ، أي تمييز لغة الأدب بين الاستعمال الفردي للغة ، وهو ما اهتمت به البلاغة العربية مبكرا وبالتحديد في دراسات إعجاز القرآن التي انصبت جهود علمائها على تأكيد عدول أسلوب القرآن الكريم عن أساليب التعبير المعتادة عند العرب ومن ثم تتبع خصائص هذا الأسلوب ووجوه الجمال فيه .

فكانت دراسات الرماني وعبد القاهر الجرجاني خير مثال لقضية العدول في أسلوب القرآن الكريم وكان موقف السكاكي واضحًا من هذه القضية، حين سمى المعنى الأساسي أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى ، ثم يأخذ جملة من العدولات عن هذا الأصل تتفاوت في جمالها حتى تصل إلى مرتبة الإعجاز ممثلة بالآيات القرآنية كما في قوله تعالى ((رب إني وهن العظم مني)) وكذلك ((اشتعل الرأس شيبا))(مفتاح العلوم : 137، 138)

وكذلك كانت بحوث البلاغيين في علم المعاني بحوثًا في كثير من جوانبها تدور حول العدول عن النمط المألوف من اللغة إلى أنماط ذات طاقات إيحائية كما في مباحث التقديم والتأخير والحذف والذكر والتعريف والتنكير...الخ وعلم البيان هو أيضا يبحث في العدول بعد أن استقر تعريفه عندهم ((العلم الذي يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة)) وكذلك علم البديع إذ أن فكرة التحسين إنما هي عدول في حقيقتها .

ومن مظاهر الاشتراك بين البلاغة والأسلوبية اتخاذ المقارنة منهجًا لبيان التفاضل بين الأساليب ، وكانت دراسات إعجاز القرآن رائدة في هذا الباب ،إذأ أدركت هذه الدراسات أن لا سبيل للوقوف على سر بلاغة أسلوب القرآن إلا باستعراض التراث الأدبي عند العرب وموازنة أساليب العرب بأسلوب القرآن الكريم يبين فضل أسلوب القرآن الكريم على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان واعترف لهم الناس بالإجادة والإتقان فيها ومن هذا ما قام به المبرد في كتابه (البلاغة) والباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن)وعبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) ولعل مقارنتهم المشهورة بين قوله تعالى " ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب" وقول العرب " القتل أنفى للقتل " خير مثال لمنهجهم في بيان المفاضلة بين أسلوب القرآن وأساليب العرب .

أما أبرز الفروق بينهما فهو أن علم البلاغة علمٌ لغوي قديم ، وعلم الأسلوب علم لغوي حديث والعلوم اللغوية القديمة تنظر إلى اللغة على أنها شئ ثابت ، في حين أن العلوم اللغوية الحديثة تسجل ما يطرأ على اللغة من تطور وتغير ، فالبلاغة حين تتناول موضوع التقديم والتأخير أو الذكر والحذف أو التعريف والتنكير فإنها تتناوله منفصلا عن الزمن والبيئة ، أما علم الأسلوب شأنه شأن سائر العلوم اللغوية الحديثة ، فإنه يدرس هذه الظواهر افقيًا، أي : تصور علاقة هذه الظواهر بعضها ببعض في زمن واحد ورأسيًا. أي تطور كل ظاهرة من هذه الظواهر على مر العصور . فالبلاغة مثلا لا تفرق بين ورود هذه الموضوعات في الشعر أو النثر ولاتميز بين استخدامها في القرن الأول أو القرن السابع أو العصر الحديث ، وذلك أن قوانين البلاغة كقوانين النحو ثابتة على اختلاف العصور ، أما علم الأسلوب فيعترف بالتغييرات ويدرسها لبيان دلالاتها في نظر المبدع والمتلقي .

وقيل في الفرق بين البلاغة والأسلوبية أن البلاغة علم معياري يرمي إلى تعلم مادته. أما الأسلوبية فطريقتها تحليلية تتجنب الأحكام التقويمية وتتبع منهج العلوم الوصفية ، البلاغة ترمي إلى تعلم الإبداع وخلقه بموجب قوانين وأنماط مسبقه ، أما الأسلوبية فتسعى إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد وجودها ، أي إن البلاغة سابقة للعمل الإبداعي ، أما الأسلوبية فإنها لاحقة .

ومع أن البلاغة تهتم بمقتضى الحال الذي يدخل في تعريفها والذي لا يكاد يختلف عن (الموقف) الذي يهتم به علم الأسلوب ، وكلاهما يفترض وجود أكثر من طريق للتعبير عن المعنى ، والقائل يختار أحدهما لأنه في نظره أكثر مناسبة للموقف . نقول : على الرغم من التقائهما الظاهري عند هذا الموقف إلا أن الخلاف بين البلاغة والأسلوبية هنا في أن البلاغة تصبُّ جُلَّ اهتمامها في التلقي فتجعله محورًا رئيسًا لها ، تعني به وتوجَّهُ إليه الخطاب على حساب حالتهِ في حين أغفلت مصدر الكلام وهو المتكلم ..أما علم الأسلوب فقد نشأ متأثرًا بانجازات علم النفس لاسيما في الجانب الوجداني من الإنسان فكان (الموقف) في الأسلوبية أشد تعقيدًا من (مقتضى الحال) في البلاغة ، إذ تؤثر في المتكلم والمتلقي عوامل خارجية كالمنشأ والجنس والسن والبيئة والمركز الاجتماعي ، فضلا عن العوامل الفردية التي ترجع الى المزاج والشخصية وكذلك الموقف الوجداني المتكون من موقف المتكلم أمام مخاطبهِ في لحظة القول .

ويمكن أن نضيف إلى الفروق بين البلاغة وعلم الأسلوب ما يمكن أن نسميهِ بـ(المستويات اللغوية)فالبلاغة لا تفرق بين اللغة المكتوبة والمنطوقة ، ولاتميز بين الشعر والنثر ولا تاخذ بنظر الاعتبار الفروق الزمنية من

خلال الاستشهاد فالوجه البلاغي في الشعر الجاهلي يُدرس بقوانين البلاغة كما يدرس هذا الوجه في الشعر الحديث .

أما الأسلوبية فتدرس لغة محددة تقف على خواصها وتحدد معالمها التعبيرية وطرق استعمالاتها المختلفة بشكل يستقصي جميع جوانبها وصنفها على أسس لغوية حديثة تميز بين النحو والدلالة والأسلوب .

وإذا كان لنا من كلمة حول هذه الفروق بين البلاغة وعلم الأسلوب فإننا نقول : إن البلاغة علم قديم نشأ في ظروف معينة من وعي الإنسان ومستواه الحضاري أما الدراسات الأسلوبية فهي دراسات حديثة ، أفادت كثيرًا من تقدم العلوم جميعها كعلم النفس وعلم الاجتماع وكل العلوم التجريبية .. وبذلك فإن مطالبة البلاغة بأن تصل في مكتشفاتها إلى الأسلوبية جاءت نقلا عن الغربيين وهولاء حين يتحدثون عن البلاغة فإنما يريدون بها بلاغة ارسطو التي ورثتها حضارة الغرب فأقامت الأسلوبية على أنقاضها ولاشك في أن بلاغة العرب التي نشأت في ظل القرآن الكريم وترعرعت في دراسات إعجازه تختلف في كثير من قضاياها عن بلاغة ارسطو وحتى الذين التفتوا الى البلاغة العربية فأنهم قصروا بلاغة العرب على الصورة التي رسمها لها السكاكي والقزويني وتتابعت عند اللاحقين شرحًا او تلخيصًا متناسين أن البلاغة العربية في صورتها الناصعة تمتد إلى قرون سابقة كما توضحت عند الجاحظ وأبي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني وابن الأثير .

وبذلك فإن بعض هذه الفروق التي أشاروا إليها لا يمكن أن تقبل كحقائق ثابتة في البلاغة العربية فقولهم : إن البلاغة علم يفترض في اللغة الثبات نقول عنه : إن هذا الثبات لا يلغي وجود طاقات وإمكانات في اللغة فيها من المرونة ماتنعكس في اختلاف الأزمنة والأمكنة والأطوار الحضارية واختلاف طبائع المتكلمين ، ويرجع كثير منه إلى الفروق في اختيار الكلمات واختيار عناصر الصورة وطريقة التأليف التي تختلف باختلاف القائلين ،إي اننا تستطيع أن نقول : إن البلاغة العربية تركت مسألة التغير إلى المبدع واختياره للألفاظ وطريقة تركيبها ، ولاشك في أن ذلك كلّه مرتبط بذوقه وثقافته وحالاته النفسية والوجدانية .

أما وصف البلاغة بأنها علم معياري يرمي إلى تعليم مادته رأي فيه تجن عليها،إذ لا يرى من الحقيقة إلا نصفها كما يقولون ، فلم تكن البلاغة مجرد قواعد وتعريفات انتظمت في كتبها لتعليم فن التعبير البليغ ، إنما كانت في كثير من كتب النقد نقدًا وتحليلًا وموازنات وأحكام تبنى على تعليلات بلاغية كما تجلى ذلك فيما عرف بالنقد البلاغي . ولعل خير دليل على هذه الدراسات إعجاز القرآن الكريم ، فهذه الدراسات البلاغية

قامت على أساس دراسة ما موجود ، وليس إملاء الشروط كما أن البحث في بلاغة القرآن الكريم لا يراد منها الانتهاء إلى إصدار الحكم بالجودة أو الرداءة ، وإنما يقصد به الكشف والتحليل والتوضيح مما يدخل في باب الوصفية لا المعيارية .

ونختم بحثنا بالقول : إن علم الأسلوب أو الأسلوبية لم يستطع أن يثبت نفسه بديلا عن البلاغة ، بل إن لهذا اللون من الدراسات ثغراته أيضا ونعتقد إن دراسات بلاغية جديدة مثمرة لا تكون الا بالمزج بين انجازات البلاغة العربية وما قدمته الدراسات الأسلوبية الحديثة ، وبذلك يمكن أن نمزج بين الذوق والمنهجية العلمية مادام أحدهما لا يتعارض مع الآخر بل يتعمق به ويثرى فيمكن بذلك أن نؤسس لعلم أسلوب عربي لا يتجاهل تراث البلاغة العربية الضخم ولا يتنكر لانجازات الأسلوبية الحديثة ، بل يمازج بينهما مزجًا حضاريًا واعيًا بما يكفل لنا السير بخطى راسخة وأصيلة .